

## تحولات القصيدة العربية

أ.كاملي بلحاج.

جامعة سيدي بلعباس

تعرضت القصيدة العربية العمودية منذ العصر الجاهلي إلى عدة هزات بغية النيل من هيكلها وتشكيلاتها، غير أن هذه الهزات لم تزل منها وقيمت هذه القصيدة تشق طريقها نحو الأمام إلى يومنا هذا. ومن هذه الهزات نذكر مايلي:

— هزة شعراء الصعاليك الذين حاولوا الخروج عن نمط القصيدة وبنائها، فأحدثوا قصيدة مختلفة في بنائها ومعجمها الشعري، وفي صورتها ومضامينها.

وكان من المنتظر أن يخرج الشعراء والأدباء عن التقليد والتكرار، أو بعبارة أوضح عن عمود الشعر الذي شكلت بداياته القصيدة الجاهلية، بسبب حركة الفتح الإسلامي، غير أن ذلك لم يؤد إلى إحداث تغيرات قنية، وإنما أدى إلى اتساع في الموضوعات والأغراض - هزة مسلم بن الوليد: الذي حاول أن يجعل من الشعر إبداعاً جمالياً لطيفاً، قال عنه ابن قتيبة: "أول من لطف في اللعاني ورقق في القول". - هزة بشار بن برد: الذي ابتكر لغة جديدة ونمطاً حديثاً في الكتابة، قيل عنه: "أستاذ المحدثين من بحر اغترفوا وأثره اقتصوا"، وقيل أنه: "سلك طريقاً لم يسلكه أحد، فافترد به وأحسن فيه". - هزة أبي العتاهية: وهو نموذج للتجديد تلاقى فيه الصوفية والفلسفة بالشعر، لا فرق بالنسبة إليه الشعر وكلام الناس إلا في الوزن والقافية، وكان يخرج عن نظام القافية كما يظهر في قصيدة (ذات الأمثال) وكان يقول: "أنا أكبر من العروض". - هزة أبي نواس: أراد أن يتجاوز التقليد ورموزه القديمة (الطلل، الناقة، الصحراء) متخذاً من قناع المحجون والخمر بؤرة لتحولاته الشعرية. وربما تكمن جلة أبي نواس في الكشف عن الطاقات للكبوتة في الإنسان وتجاوز، - إن لم تقل - كسر الحاجز بين الذات والكون. - هزة أبي تمام: لم تعد القصيدة عنده هيكلًا يعلو في المكان بل أصبحت حركة زمانية وتحولاً مستمر غير ثابت. ومن ثم كانت اللغة عنده أكثر من مادة صوتية، فكل كلمة أو لفظة تكشف عن شكل خاص من الوجود. وإذا كان أبو نواس قد انطلق من أولية التجربة في إحداث التغيير الشعري فإن أبا تمام انطلق من أولية اللغة الشعرية محاولاً تجاوز الراهن والمعطى الشعري القديم. - هزة الموشحات الأندلسية: تعتبر الموشحات هزة أخرى في تاريخ القصيدة العربية، حول من خلالها أصحابها التأسيس لنمط من الشعر الجديد صالح للغناء وغيره متخذاً أبنية مختلفة وأشكالاً متعددة وألفاظاً سهلة قريبة من عالم الموسيقى والغناء.

هذه محاولات مقتصرة جداً عن تلك الهزات التي لم يكتب لها النجاح بشكل أكبر وأعم لأنها كانت محاولات فردية، كما أن بعضها ارتبط بالجانب الأخلاقي والديني للأمة، فكان الناس ينظرون إليها أنها محاولات للتمرد على القيم وأشكالها المتوارثة. وظل الحال على ذلك إلى أن اصطدم الشرق بالغرب.

صدمة الحداثة وأسباب التحولات الشعرية: هناك عدة أسباب وعوامل أدت إلى الهزة الكبرى في تاريخ الشعر العربي مما أدى إلى ظهور قصيدة جديدة في بنائها وهندستها وصورها وأشكالها على يد مجموعة من الشعراء أمثال نازك الملائكة و"بدر شاكر السياب" و"صلاح عبد الصبور" و"أدونيس" وغيرهم من رواد الشعر الحداثي. من هذه الأسباب نذكر مايلي:

1. التقدم التكنولوجي الهائل الذي هو بالأساس ثورة فكرية، وعهد جديد في ميدان العمل والفكر والعلاقات الاجتماعية، دخل الإنسان من خلاله إلى عالم الحركة والتحول والتعقيد وابتعد عن الثبات والبساطة.

2. ظهور الرومانتيكية وانهيار الكلاسيكية: جاءت الرومانسية لتعبر عن تأزم الفكر والإرادة والقلق والكآبة وفتحت الباب واسعاً أمام الخيال والعاطفة ودعت إلى تحرير المكبوت والتمسك بالروح والميل إلى الغوامض والخيالات والأساطير. بهذه المدرسة تأثر "خليل مطران" و"جبران خليل جبران" و"عمر أبو ريشة" وهم بمثابة الأرض الخصبة التي سوف تنمو عليها القصيدة المعاصرة. يقول جبران خليل جبران في إحدى رسائله إلى ماري هسكل سنة 1914: "لم تكن الطرق القديمة تعبر عن أشياء جديدة وهكذا كنت أعمل دائماً على ما ينبغي أن يعبر عنها، ولم اقتصر على صياغة ألفاظ جديدة، بل إن إيقاعاتي وموسيقاتي كانت جديدة وأشكال التأليف كلها كانت جديدة. كان علي أن أجد أشكالاً جديدة لأراء جديدة"

3. انهيار النزعات الدينية وتقهقر الفلسفة العقلية الأحادية: وهنا بدأت عملية الخروج عن سلطة المقدسات والثوابت، فتعددت الرؤى واختلفت الآراء، وشاع التعدد والتأويل والاختلاف، وقد ساعد على ذلك أيضاً ظهور فلسفة النسبة والاحتمال التي تهتم بالتعدد في الطرح والمفاهيم والنظر. أضف إلى ذلك فلسفة اللامعقول التي تتعد عن المنطق والتسلسل والمألوف التي كانت من الأسباب المباشرة في التعبير عن أزمة الفكر وانغلاق الأفق، وقد تركت أثراً واضحاً على أدب هذه الفترة.

هذه العوامل وغيرها أدت إلى تحولات فكرية في مختلف مجالات العلوم والمعرفة، فنشأ عنها تحول في الرؤى والفلسفات وبخاصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فكانت القصيدة الجديدة تعبيراً واضحاً عن هذا التحول. تقول نازك الملائكة: "كانت بداية حركة الشعر الحر سنة 1947 في العراق، ومن العراق، بل من بغداد نفسها زحفت هذه الحركة وامتدت حتى غمرت الوطن العربي كله، وكادت بسبب تطرف الذين استجابوا لها، تجرف أساليب شعرنا العربي الأخرى جميعاً، وكانت أول حرة الوزن تشدد قصيدتي المعنونة (الكوليرا) يوم 27/10/1947".

من هنا التاريخ دخل الشعر العربي مرحلة جديدة مختلفة صاغها رواد الحركة حتى الثمانيات على أكبر تقليد، ومن بعدها دخل الشعر مرحلة المجهول والتأزم التي عبر عنها العديد من الكتاب والنقاد وعلى رأسهم غالي شكري في كتابه (القيم شعرنا الحديث إلى أين؟) والمعداوي في كتابه عن أزمة القصيدة.